

الفصل الثالث

**النبادلية بين الحركات الجماهيرية**



## 14

عندما يصبح الناس جاهزين للانضمام إلى حركة جماهيرية فإنهم، عادة، يصبحون جاهزين للالتحاق بأي حركة فاعلة، وليس بالضرورة إلى حركة بعقيدة معينة أو برنامج معين. في المدة التي سبقت صعود هتلر إلى الحكم كان من المستحيل أن يتوقع أحد هل سينضم الشباب المتوترون إلى الشيوعيين أو إلى النازيين. وفي أثناء غليان روسيا القيصرية كان اليهود والروس مستعدين للثورة على القيصر، وللانضمام إلى الصهيونية في الوقت نفسه: في العائلة الواحدة كان أحد الأبناء ينضم إلى الثوار والآخر إلى الصهاينة. ينقل الدكتور حايمم وايزمان<sup>(\*)</sup> عن أمه العبارة الآتية: «كل ما يمكن أن يحدث سوف يكون ساراً. إذا كان صموئيل (الابن الثوري) على حق، فسوف نكون سعداء في روسيا، وإذا كان حايمم (الابن الصهيوني) على حق، فسوف نذهب للعيش في فلسطين»<sup>(1)</sup>.

---

(\*) كان حايمم وايزمان (1874 - 1952م) من رواد الحركة الصهيونية، وقد كان أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية، كما كان أول رئيس لإسرائيل وكانت رئاسته فيما بين 1949 - 1952م (المترجم).

(1) Chaim Weismann, Trial And Error (New York: Harper & Brothers, 1949), P. 13.

هذا الاستعداد للتحويل لا ينتهي، بالضرورة، عند اعتناق المؤمن الصادق حركة ما. عندما تكون هناك حركات جماهيرية متنافسة نجد حالات كثيرة من نقل الولاء من حركة إلى أخرى. إن المعجزة التي حولت «شاؤول» كاره المسيحيين إلى بولّ المسيحي الصادق تتكرر في تاريخ الحركات الجماهيرية. وفي هذا العصر تنظر كل حركة جماهيرية إلى أتباع الحركات الأخرى بوصفهم أعضاء محتملين يمكن نقل ولائهم. كان هتلر يعدّ الشيوعيين الألمان أتباعاً محتملين للنازية: «إن الديمقراطي الاشتراكي، سواء كان صغيراً أو نقابياً قيادياً، لن يتحوّل إلى نازي، أمّا الشيوعي فبإمكانه، دوماً، التحوّل»<sup>(1)</sup>. قال الزعيم النازي روم: إن بوسعه تحويل أشد الشيوعيين احمراراً إلى نازي متعصب خلال أربعة أسابيع<sup>(2)</sup>. ومن ناحية أخرى كان الشيوعي كارل إديك يعدّ لابسي القمصان البنيّة النازيين مددًا احتياطياً يمكن أن يتحوّل إلى الحزب الشيوعي<sup>(3)</sup>.

(1) Hermann Rauschning, Hitler Speaks (New York: G. P. Putnam, Sons, 1940), P.134

(2) Konrad Heiden, Der Fuehrer (Boston: Houghton Mifflin Company, 1944), P. 30.

(3) Fritz August Voigt, Unto Caesar (G. P. Putnam, Sons, 1938), P. 283.

وحيث إن كل الحركات الجماهيرية تستمد أتباعها من الأنماط البشرية نفسها وتجذب النوعية نفسها من العقول، فإن بوسعنا أن نستنتج ما يأتي:

(أ) جميع الحركات الجماهيرية متنافسة فيما بينها ومفنم واحدة منها لا بُدَّ أن يكون مفنم الأخرى.

(ب) جميع الحركات الجماهيرية تبادلية، بوسع أي حركة منها أن تحول نفسها، بسهولة، إلى حركة أخرى. يمكن للحركة الدينية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية أو حركة قومية، كما أنه يمكن للثورة الاجتماعية أن تتحول إلى حركة قومية متطرفة أو إلى حركة دينية، ويمكن للحركة القومية أن تتحول إلى ثورة اجتماعية، أو إلى حركة دينية.

## 15

يندر أن تكون للحركة الجماهيرية طبيعة واحدة، فهي كثيراً ما تظهر خصائص من حركات أخرى، وأحياناً خصائص من حركتين أو ثلاث في الوقت نفسه. كانت هجرة اليهود القدماء من مصر ثورة عبيد وحركة دينية وحركة قومية. وكانت القومية اليابانية المتطرفة ذات طابع ديني. أما الثورة الفرنسية، فقد شكلت ديناً جديداً. كانت لهذا الدين

عقيدته، مبادئ الثورة الخالدة: الحرية والإخاء والمساواة. وكانت له طقوس عبادة هي مزيج من الطقوس الكاثوليكية والمهرجانات الشعبية. وكان لهذا الدين قديسوه: أبطال الحرية وشهداؤها<sup>(1)</sup> وفي الوقت نفسه كانت الثورة الفرنسية حركة قومية. قررت الجمعية التشريعية الفرنسية في 1792م نصب محاريب في كل مكان تحمل هذه العبارة «يحيا المواطن ويعيش ويموت من أجل وطن الآباء والأجداد»<sup>(2)</sup>.

وكان لحركات الإصلاح البروتستانتي جانب ثوري عبّر عن نفسه في حركات تمرد الفلاحين، كما كان لها، أيضاً جانب قومي. قال لوثر: «نحن الألمان في نظر الإيطاليين مجرد خنازير، وهم يستغلوننا عن طريق الاحتيال، ويمتصون خيرات بلادنا حتى النخاع. استيقظي يا ألمانيا!»<sup>(3)</sup>.

والمظاهر الدينية للثورتين البلشفية والنازية واضحة للعيان. تحتل المطرقة والمنجل في الأولى، والصليب المعقوف في

---

(1) Carl L. Becker, The Heavenly City of The Elgteenth. Century Philos Hers. Cnewhaven: Yale university Press, 1932) P. 155.

(2) A. Mathiez, Les Origins Des Cultes Rervolutionnaire P. 31. Quoted By Carlton J. H. Hayes, Essays On Nationalism (New York: Macmillan Company,1926) P.103.

(3) Frantz Funck- Brentano, Luther, (London: Jonathan Cape, ltd. 1939) P.278.

الثانية، المكانة نفسها التي يحتلها الصليب المسيحي. وطقوس المواكب الحاشدة في الحركتين تحل محل المسارات الدينية. ولكل من الحركتين عقيدة، وقدّيسون، وأضرحة مقدّسة، كما أن الحركتين قوميتان بامتياز. كانت الثورة النازية قومية منذ البداية، أمّا الثورة البلشفية فأصبحت قومية في تطور لاحق.

تمثل الصهيونية حركة قومية وثورة اجتماعية، كما أنها في نظر اليهود الأرثوذكس حركة دينية أيضاً. وللقومية الأيرلندية جذور دينية راسخة. والحركات الجماهيرية المعاصرة في آسيا هي في الوقت نفسه قوية وثورية<sup>(\*)</sup>.

## 16

كثيراً ما يكون السبيل الوحيد لإيقاف حركة جماهيرية هو إيجاد حركة بديلة. يمكن إيقاف ثورة اجتماعية بتشجيع حركة دينية أو قومية. نجحت الكاثوليكية، في البلاد التي استطاعت أن تستقطب فيها الجماهير، في وقف الزحف الشيوعي. وفي اليابان كانت كل حركات الرفض الاجتماعي تمر

---

(\*) يبدو أن ملاحظات المؤلف عن الصفة المزدوجة للحركات الجماهيرية تنطبق، بحذاقها، على الجماعات الأصولية المتطرفة، الحاضنة الطبيعية للإرهاب، فهي في حقيقة أمرها، برغم شعاراتها وادعاءاتها الإسلامية، حركات سياسية تستهدف الوصول إلى السلطة (المترجم).

عبر قناة القومية. وفي جنوب الولايات يحول التضامن العرقي بين البيض دون قيام ثورة اجتماعية من الفقراء على الأغنياء. وتصدق الملاحظة نفسها على الفرنسيين في كندا، والبوير في جنوب أفريقيا.

إلا أن استبدال حركة بحركة عملية لا تنجح في كل الأحوال، وقد تكون باهظة الثمن<sup>(\*)</sup>. على الذين يريدون الحفاظ على الحاضر، كما هو ألا يفامروا باللعب في الحركات الجماهيرية: حيث توجد حركة جماهيرية توجد مناهضة للوضع القائم. في إيطاليا وألمانيا، في مدة ما قبل الحرب العالمية الثانية تصرف رجال الأعمال بطريقة بدت لهم منطقية، فدعموا الفاشية والنازية لإيقاف المد الشيوعي، إلا أنهم بعملهم هذا سارعوا، برغم عقلانيتهم، في القضاء على أنفسهم.

هناك بدائل أكثر أمنا للحركات الجماهيرية. يمكننا القول، على وجه العموم: إن أي مجهود يحول دون تشطي الذات، ويتيح فرصاً جديدة، وبدائيات جديدة، سيساعد على تقليص الحركات الجماهيرية. سوف نناقش هذه البدائل في

---

(\*) يستحضر المرء تجربة الرئيس المصري أنو السادات، حينما حاول في سبعينيات القرن الماضي ضرب التنظيمات الناصرية بتشجيع التنظيمات الأصولية، فكانت النتيجة وبالأعلى عليه (المترجم).

موضع لاحق، أما هنا فسنناقش بديلاً غيرياً بعض الشيء، للحركات الجماهيرية هو الهجرة إلى الخارج».

## 17

تحقق الهجرة للمحيطين الأمل الذي يتوخونه عند الانضمام إلى حركة جماهيرية: التغيير والبدائية الجديدة. والأشخاص الذين يسارعون إلى الانضمام إلى الحركات الجماهيرية سوف يسارعون إلى الهجرة لو أتحت لهم الفرصة. من هنا يمكننا القول: إن الهجرة يمكن أن تكون بديلاً للحركة الجماهيرية. لورحبت الولايات المتحدة والأمبراطورية البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى بأعداد كثيفة من أوروبا لما قامت الحركات الفاشية والنازية. وفي الولايات المتحدة ساعد السماح بالهجرة إلى أنحاء القارة الضخمة على الاستقرار الاجتماعي.

ومع ذلك، نظراً للشبه بين أتباع الحركات الجماهيرية والراغبين في الهجرة، فقد تكون الهجرة الجماعية ميداناً خصباً للحركات الجماعية. يصعب أحياناً أن نحدد متى تبدأ الهجرة الجماعية، ومتى تبدأ الحركة الجماهيرية - أو أن نحدد من الذي بدأ قبل الآخر. تطورت هجرة اليهود القدماء

من مصر إلى حركة دينية وقومية. أما هجرة القبائل البربرية (البدائية) في الأيام الأخيرة من الأباطورية الرومانية فقد كانت أكثر من تتقلُّ بشري. كانت هذه القبائل صغيرة العدد، ولكنها بمجرد غزو دولة ما كانت تستقطب إلى جانبها المظلومين والمتذمرين. في جميع مناحي الحياة «كان الأمر ثورة اجتماعية تغلفت بقناع الغزو الخارجي»<sup>(1)</sup>.

كل حركة جماهيرية هي، على نحو أو آخر، «هجرة»، حركة نحو «أرض الميعاد»<sup>(\*)</sup>. وعندما تسمح الظروف للحركة، فإنها تنطلق بالفعل إلى تلك الأرض. حدث هذا مع الجماعات البروتستانتية الأوربية التي عدت الولايات المتحدة أرض الميعاد الجديدة، وهاجرت إليها، كما حدث مع تدفق الصهاينة على فلسطين. تقوي الهجرة، عندما تكون بأعداد كبيرة، روح الحركة ووحدها، وتلجأ الحركات الجماهيرية النشطة إلى الهجرة، عندما تكون بصدد غزو خارجي، أو حرب صليبية، أو الاستيطان في أراضٍ جديدة.

(1) H.G Wells, the outlin Of Histmry (New York: Macmillan Company, 1922) pp. 482- 484

(\*) تصدق ملاحظة المؤلف على عدد من الجماعات الأصولية المتطرفة التي تدعو أتباعها إلى «الهجرة» من العالم ومفاسده، وقد يستخدم بعضها كلمة الهجرة، كما في جماعة «التكفير والهجرة» المصرية (المترجم).